



مركز المسبار للدراسات والبحوث

Al Mesbar Studies & Research Centre

الإسلام الموازي في تركيا

البكتاشية وجدل التأسيس

الكتاب 113 مايو (أيار) 2016

كتاب شهري يصدر عن مركز المسبار للدراسات والبحوث

الله في بلد النسور: الطريقة البكتاشية*

إدليرا عصماني (Edlira Osmani)**)

ترجمة: حبيب الحاج سالم***)

يعود منشأ الطريقة البكتاشية إلى الحركات الصوفية في الشرق الأوسط خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر؛ قبل أن تستقر في ألبانيا. وبعد فترة من الأهمية السياسية البالغة عند انحلال الإمبراطورية العثمانية، وقع حظر الطريقة كلياً من قبل النظام الشيوعي، حين أصبحت ألبانيا الدولة الموحدة الوحيدة في العالم. لكن بفضل الممارسات السرية لجماعة البكتاشية في المنفى، بقي الدين حياً وانتشر في بلدان عدة. وفي العام 1988، ضمن الدستور الجديد حرية العبادة، واستردت المعتقدات البكتاشية مكانتها في المجتمع الألباني، وعاد بلد النسور إلى تقليده العريق في التسامح، وسُمح للبكتاشيين والمسلمين السنة والمسيحيين بالصلاة جماعة في جبل توموري، حرم الألهة في ألبانيا.

(*) نقلت الدراسة من الإنجليزية انظر:

«God in the Eagles' Country: The Bektashi Order», Quaderns de la Mediterrània, n° 17, 2012, p. 107-116. By: Edlira Osmani. Karl Franzens University, Graz,

(**) باحثة ألبانية.

(***) باحث ومترجم تونسي.

يا بلاد الألبان! دعيني أتأمل بعيوني أرضك

أنت أيتها الراعية الصخرية لأناس همجيين!

لقد دالت دولة الصليب، وارتفعت مآذنك

وتلأل الهلال الشاحب في الوادي

خلال خمائل السرو المحيطة بكل مدينة.

اللورد بايرون

عندما زار اللورد بايرون¹ ألبانيا في القرن التاسع عشر، وجد شعباً مضيافاً، وموروثاً وتاريخاً قديمين قدم الإنسان. يعيش الألبان في بلاد من الجبال الوعرة والصخور العالية، تفصل بينها هضاب واسعة وخوانق مملأ بالثلوج. يماثل تاريخ ألبانيا ما بين الشرق والغرب نسراً جبلياً وبحراً مضطرباً. هذا المكان الذي يسميه الألبان شتي بيرى (Shqipëri) أي «أرض النسور» ويسميه الغرباء ألبانيا، هو بلد ذو تاريخ قديمتين ولغة بياهيان بتعايش ديني رائع.

يركّز هذا النص على موضوع المعتقدات الدينية الألبانية، وأساساً العقيدة البكتاشية. تعتبر العقيدة البكتاشية مساوية للأديان الأخرى في ألبانيا التي تمثل مركز البكتاشية العالمي، إذ كثيراً ما توصف البكتاشية بأنها الدين الأصح للألبان، بوصفها جسراً بين المسيحيين والمسلمين، والحال أنه كثيراً ما يوصف الألبان بأنهم شعب ذو مشاعر دينية ضعيفة. سوف تدرس هذه الأفكار لاحقاً، لكن قبل تناول الأديان في ألبانيا، من المهم إلقاء نظرة على التاريخ الألباني منذ العصور القديمة

(1) جورج غوردون بايرون أو اللورد بيرون (Lord Byron)، شاعر بريطاني من رواد الحركة الشعرية الرومانسية، عاش بين سنتي 1788 و1824. أقام فترة في ألبانيا ونظم فيها قصائد (ملاحظة المترجم).

إلى اليوم، إذ نرجح أن توفّر بعض الأحداث فهماً أفضل لروابط الألبان بالدين، وفي الوقت ذاته كيف أثّرت لحظات تاريخية معينة في اختياراتهم الروحية.

إذا تفحصنا الفترة السابقة لولادة المسيح، نجد أنّ ألبانيا كانت تسمّى «إيليريا» (Illyria). وقد كان الإيليريون، طبقاً لمؤرخين ألبان وغير ألبان، أحفاد البلاسيجيين الذين سكنوا شبه جزيرة البلقان منذ القدم. وفي تلك الحقبة، عبد الإيليريون آلهة متعدّدة بدءاً بالشمس وانتهاءً بالحجر.

من المهمّ هنا استذكار الإيليريين القدماء، لأنّ طقوسهم الاعتقادية في الشمس والأحجار والأرض... إلخ، ليست موصوفة فحسب في كتب التاريخ، بل هي لا تزال قائمة في ألبانيا إلى اليوم. ففي كتابه الحقيقة حول ألبانيا والألبان² كتب باشكو (Pashko) شاعر النهضة الألبانية (1825-1892) حول بعض الطقوس الدينية القديمة، التي وجدت قبل زمن المسيحيين والمسلمين. في ذلك الزمن، كانت الأقسام التي يستخدمها الألبان شبيهة بتلك التي استخدمها أسلافهم: «أقسم بالحجر» (Për këtë gur)، «أقسم بعيني» (Për sytë e ballit)، أو «أقسم بهذه السماء وهذه الأرض» (Për këtë qiell e dhe). وعلى الرغم من تغيّر الأزمان، يمكننا -إلى الآن- سماع الناس يستخدمون هذه الأيمان. وفي الوقت الحاضر، يحلف معظم الألبان بالسلطان بالم (për atë Ballem Sulltan) وبابا تومور (për Baba Tomorr) أو بكنيسة ياش (për Kishën e Laçit). لقد كانت الأقسام مؤسّسة مهمّة في القانون الألباني التقليدي، فقد كان الألبان يقسمون لإثبات عدم خرقهم القانون، ومن المعروف أنّ الوعد أو القسّم بين الألبان وغير الألبان أمر ذو شأن عظيم.

لاحقاً، وبعد أن كانت تسمّى إيليريا، أصبحت ألبانيا تعرف باسم «أربيري» (Arbëri). لكن، في ذلك الزمان لم تكن مفاهيم مثل الدولة أو القومية مفهومة

(2) تعليق المترجم: الكتاب المقصود هو:

Pashko, Vasa, The Truth on Albania and the Albanians, Centre for Albanian Studies, 1999, 46 p.

من قبل الناس، فقد كان الألبان، على الرغم من اختلاف الأسماء، سواسية. وتعود اللغة الألبانية الحالية، وهي هندو-أوروبية، إلى العصور القديمة. وخلال الفترة التي كانت تسمى فيها البلاد أربيري، تمّ غزوها من قبل الإمبراطورية العثمانية، واستمرّ ذلك لخمسة قرون وقعت فيها أحداث عدّة كان لها الأثر الكبير في الحياة الدينيّة للألبان. إنّه زمن جورج كاستريوتي سكاندربرج (George Kastrioti Scanderbeg)³ وصراعه ضدّ الأتراك ومنعه الجيوش العثمانية من النفاذ إلى أوروبا المسيحية، وزمن ليك دوكاجيني (Lek Dukagjini)⁴ وشريعته.

لقد أثر هذان الوجهان التاريخيان وألهما الألبان طوال القرون التالية. فقد ألهم سكاندربرج الشعب الألباني المحاربة من أجل استقلاله وحرّيته، فيما اشتهر ليك دوكاجيني بكتابه التشريعي حول القواعد القانونيّة، وهي القواعد التي لا تزال إلى اليوم، وخصوصاً في شمال ألبانيا، فاعلة وتحدّي قوانين الدولة. وتتمثّل تلك الشريعة في مجموعة غير مكتوبة من القوانين الشفويّة، دونها جتيافين جيتشوفي (Shtjefën Gjeçovi) منذ قرن وتطبّق اليوم من قبل الجماعات المحليّة في شمال ألبانيا، خصوصاً الكاثوليك. ويمثّل الثأر، الذي تقرّه الشريعة، مشكلة رئيسة تتجاوز -في كثير من الأحيان- قانون الدولة. لكن الشريعة لا تتبنّى الثأر؛ بل على العكس، تمنعه. فشريعة دوكاجيني هي حزمة من القواعد نظّمت طريقة العيش في الماضي لكن، للأسف، يساء فهم هذه القواعد اليوم.

وغنيّ عن البيان أنّ للشريعة دوراً مهماً للغاية في المناطق التي طبّقتها وما زالت تطبّقها. فقد كانت قانون تنظيم ذاتياً بالغ الأهمية في حياة الناس، وهو ما تختزله كلمات إديث دورهام (Edith Durham)⁵: «لعبارة (ليك قال إنّ... مفعول على

(3) جورج كاستريوتي سكاندربرج (George Kastrioti Skanderbeg)، عاش بين سنتي (1405 و1468). ولد في ألبانيا لعائلة من النبلاء، وقع في أسر العثمانيين وخدم في جيشهم. هرب من الجيش وأسس منطقة حكمه الخاص في شمال ألبانيا ودافع عنها لمدة خمس وعشرين سنة (المترجم).

(4) ليك دوكاجيني (Lek Dukagjini)، ولد لعائلة من النبلاء وعاش في ألبانيا بين سنتي (1410 و1481) (المترجم).

(5) إديث دورهام (Edith Durham)، رحالة وشاعرة وفتانة بريطانية عاشت بين سنتي (1863 و1944). أصبحت مشهورة بعملها الأنثروبولوجي حول الحياة في ألبانيا في بدايات القرن العشرين.

الناس يفوق مفعول وصايا الرب، ولا قيمة لتكهنات الأئمة والقساوسة إذا ما تعارضت مع شريعة ليك دو كاجيني».

تواصلت الأحداث التاريخية مع صراع الشعب الألباني من أجل الحرية، وهو ما أسهم - أيضاً - بطريقة ما في صوغ ديانتهم. فقد تنوّعت علاقة الألبان بالله في فترات تاريخية مختلفة، ودُمغت بمنع الاعتقادات الدينية من قبل الدولة الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية، ولم يتحقق بزوغ الدين من جديد في قلوب الألبان، والقدرة على الصلاة إلى الله دون خوف، إلا بعد أن عرفت الدولة الملحدة الوحيدة في العالم منذ سنة 1967 الديمقراطية في عقد التسعينيات.

يوجد أربع جماعات دينية في ألبانيا: الكاثوليك، والأرثوذكس، والمسلمون، والبكتاشيون. وقد عاشت هذه الجماعات دائماً في تناغم ديني مبهر، من خلال احترام التقاليد والاحتفالات الدينية الخاصة بمختلف العقائد، ولم تعرف ألبانيا مطلقاً حروباً دينية، ولا يزال شعار باشكوفازا (Pashko Vasa) القائل بأن «دين الألباني هو الهوية الألبانية» صحيحاً من ناحية التسامح الموجود بين الجماعات الدينية في البلاد.

وتمثل البكتاشية إحدى الجماعات الدينية في ألبانيا، وهي تحمل تاريخها الخاص في الأرض الألبانية بحيث يصح وصف ألبانيا بأنها حاملة مشعل هذه العقيدة. وقد سبق لحاجي بكتاش ولي (Haji Bektash Veli)، مؤسس البكتاشية، أن تنبأ بأن شعلة هذه العقيدة قد ترتعش بشدة خلال تاريخ البشرية، لكنّها لن تخدم أبداً. واليوم، تمتلك الجماعة البكتاشية في ألبانيا قانونها الأساسي، وقد جاء في فصله الأول: «الجماعة البكتاشية هي جماعة مستقلة، غير سياسية، تتألف من رجال الدين البكتاشيين من كلّ الرتب، ويجد الإيمان في معتقدتهم وعبادة الخالق إلهامهما في عقيدة وتقاليد وطقوس وأخلاق وقواعد الفلسفة الدينية المقدسة للبكتاشية».



ساحة بكتاشيم المقدسة في بالينيا Ballenjë (ألبانيا)

الطريقة البكتاشية

لم تكن الطريقة البكتاشية منظمة ومهيكله حتى القرن الخامس عشر، أي بعد ما يقارب القرنين على وفاة حاجي بكتاش ولي، المؤسس المفترض للبكتاشية. يعود أصل طريقة الدراويش البكتاشية إلى عدد واسع من الحركات الصوفية في الشرق الأوسط بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر⁶. في ذلك الزمن قصد عدد كبير من الأولياء المتقدمين، المعروفين باسم أولياء خراسان، الأناضول ومهدوا الطريق لمجموعات دراويش أخرى منها البكتاشيون⁷. سميت هذه الفرقة نسبة إلى حاجي بكتاش، الذي -طبقاً لبعض المصادر- لم يكن المؤسس الأصلي، لكنه كان إماماً وولياً وقع اختياره في فترة لاحقة. ومنطقة خراسان في إيران هي مسقط الرأس

(6) Albert, Doja, Bektashizmi në Shqipëri, Tirana, AHS, 2008, p. 19.

(7) المرجع السابق.

المفترض لحاجي بكتاش، الذي عاش خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر في الأناضول. وكتاب ولايتنامه (Vilajet-Name) يعيد إلى الأذهان صورة الدراويش الحجيج المعروفين خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر باسم «قلندر إيران» أو «أبدال الأناضول»⁸، وقد اعتبر حاجي بكتاش زعيم الأبدال (Pîr-i of Abdalla) منذ بداية نشاطه الديني.

لكن البكتاشية بالشكل الذي نعرفها عليه اليوم لم تظهر حتى القرن السادس عشر. وقد كان الشخص المسؤول عن تثبيت الهيكل الحالية للطريقة البكتاشية هو بالم سلطان (1473-1516)، ويُطلق عليه عادة لقب المؤسس الثاني (Pîr-i Sâni)⁹. وقد أصبحت الطريقة في زمانه تحت إمرة دده بابا (dedebaba)، أي الجد الأكبر، وهو رجل يتم تعيينه من قبل مجلس مكون من اثني عشر دده¹⁰ (تعني حرفياً «الجد» أو (kryegjysh) باللغة الألبانية، وهي أسمى درجة في الهرمية الروحية البكتاشية).

وقد أصبح بالم سلطان، تحت رعاية السلطان العثماني بايزيد الثاني، زعيم البكتاشية في مقرها الرئيس بقرية حاجي بكتاش في الأناضول سنة 1501. وقد كان ذا سلطة مطلقة على أتباعه، وهو من وحد القواعد البكتاشية. وكنتيجة لهذا التحول، اعتبر بالم سلطان الولي والمؤسس الثاني. في تلك المرحلة تزايدت أهمية الطريقة البكتاشية، وأضحت إحدى أكبر الفرق المؤثرة في الإمبراطورية العثمانية بين القرنين السابع عشر والثامن عشر¹¹، وقام أتباعها بدور كبير في نشر نفوذ الأتراك والإسلام في الدول الخاضعة للإمبراطورية العثمانية.

وفي تلك الفترة، أصبح الطابع المؤسسي للفرقة البكتاشية أكثر بروزاً، فقد كان

(8) نفسه، ص20.

(9) Huseyin, Abiva, Bektashism and Its Presence in Albanian Lands, <http://bektashiorde.com/bektashism-in-albania>.

(10) المرجع السابق.

(11) Albert, Doja, op. cit., p. 24.

هناك فصل بين المبتدئين والمعلمين، كما وجد فصل قائم على الهرمية والترقي في سلم الطريقة. في الأسفل، نجد المؤمنين العاديين (محبّ)، ونجد في المستوى الثاني المنتجبون (إيرين) الذين يمكنهم بعد التعلّم والاعتراف بهم كمنتسبين أن يصبحوا دراويش، ثمّ الارتقاء إلى رتبة «أب» (بابا في اللغة الألبانية). إنّه نظام هرمي يتمّ فيه اختيار القادة الدينيين رسمياً من قبل «الأجداد» (يطلق عليهم الدده أو (gjysh)) بعد التأكّد من ولائهم لهم. ويقف على رأس التنظيم بأكمله زعيم أوحده، هو الجدّ الأكبر (kryegjysh)، محاطاً بشخصيات بارزة يعرفون بكونهم خلفاءه¹².

ومن الواجب ملاحظة أنّ أهمّ الملامح الأساسية للشعائر الدينية البكتاشية هي صفاء قلب الشخص وروحه، وهو ما يمكن أياً كان من بلوغ الصفاء البكتاشي دون حاجة اتّباع الأنموذج السنّي أو الشيعي في التدين، إذ لا تُعتبر أركان الإسلام الخمسة ملزمة بالضرورة للبكتاشية، ولا يُفسّر القرآن حرفياً، بل يُؤوّل رمزياً، حيث يفضلون أحياناً سماع أبيات لشعرائهم تفسّر القرآن الكريم. إنّ الطريقة البكتاشية تشدّد على طهارة الإيمان عوض الشعائر الدينية الظاهرية، وتعتقد -أيضاً- أنّ الخلاص يكمن في اتّباع النماذج المثالية مثل الإمام عليّ، وحاجي بكتاش وبقية الأولياء. وتتمثّل القواعد الأخلاقية الثلاث للبكتاشية في الخير، والسلوك الأخلاقي، والأفعال الخيرة (eline, diline, beeline)، وهي توجّهات عامّة تزعم أنّ التألّه يمكن ضمانه فحسب من خلال السعي الدؤوب لتجسيد الأخلاق العالية في الحياة اليومية¹³.

ولفهم أفضل لجوهر البكتاشية، نحيل على مقولة حسين أبيوا (Huseyin Abiva): «منذ زمن بالم سلطان في القرن السادس عشر، يمكن تلخيص جوهر الفكر البكتاشي في ما يلي: يحتلّ عليّ بن أبي طالب مكانة عالية في روحانيتهم إذ يُنظر إليه كمرآة للمقدس، فعليّ هو المطلع على القرآن الباطنيّ، بينما النبيّ هو واسطة النقل التي أضحت بها القرآن الباطني بادياً للبشرية». وعلى الرغم من أنّ أتباع البكتاشية لا يضعون أيّ تمييز بين النبيّ محمّد والإمام عليّ، فإنّه لا يمكننا

(12) المرجع السابق، ص47.

(13) نفسه، ص93.

افتراض أنّ ذلك نظير مفهوم الثالوث المسيحي، حيث يقول أبيوا: إنّ «الحقّ (الله) - محمّد - عليّ» يمثلون واقعة موحّدة تعبّر عن الحقيقة. وخارج الولاء للإمام عليّ، يمثّل الأئمّة الشيعة الاثنا عشر، مصدر إلهام العقيدة البكتاشية.

التكايا هي الأماكن التي يقيم فيها ويتعبّد داخلها رجال الدين البكتاشيون، وهي محلّ زيارات كذلك من قبل غير رجال الدين. وتحتوي أغلب التكايا البكتاشية مدافن الآباء وال دراويش المشهورين، وهي مصادر روحانية وضرورية للإيمان البكتاشي كما عند الطرق الصوفية الأخرى.

البكتاشية في ألبانيا

يبقى أصل البكتاشية في ألبانيا خلافاً إلى حدّ اليوم، إذ ترى مجموعة من الباحثين أنّ الحضور الأوّل للبكتاشية في ألبانيا لا يزيد قدماً عن نهاية القرن السابع عشر، وهذه الرؤية ترتبط بالأسلمة المتأخّرة نسبياً للألبان. من جهة ثانية، ترى طائفة أخرى من الباحثين أنّ الألبان تعرّفوا على الإسلام من خلال الدعاة البكتاشيين والعلويين أولاً، حتّى قبل غزو الأتراك لألبانيا¹⁴. في حين ترى مجموعة ثالثة أنّ تشييد التكايا البكتاشية في ألبانيا قد تمّ في مجرى القرن الخامس عشر، لكن الحضور البكتاشي الفعليّ تمّ في زمن أكثر تأخراً في بدايات القرن التاسع عشر، حيث يتبنّى عدد كبير من الباحثين الرأي القائل بأنّ انتشار البكتاشية في ألبانيا خلال تلك الفترة قد تمّ بفضل حصوله على قوّة دفع من قبل عليّ باشا حاكم إقليم «يانينا» (توفي 1822). لكن علاقة عليّ باشا بالطريقة البكتاشية باتت محلّ إعادة نظر بعد أن اكتشفت وثائق معاصرة له، تُظهر تفضيله للطريقتين الخلوتية والسعدية على الطريقة البكتاشية¹⁵.

إضافة إلى ما سبق، من اللازم الإشارة إلى العلاقة المتينة بين البكتاشية والجيش الإنكشاري. فقد مثلّ الإنكشاريون عماد الجيش العثماني، وكان أعضاء

(14) Sokrat, Ahmataj, Bektashizmi nën smogun e një libri, Botim, Urtësia, 1999, p. 82.

(15) Huseyin, Abiva, op. cit.

نواته الأساسية ينحدرون من خلفيات مسيحية قبل أن يتحولوا إلى الإسلام، وهم -في سوادهم الأعظم- بكتاشيون. وقد كانوا يعرفون بأبناء حاجي بكتاش (Haji Bektash Ogullari)، وكانت أزياءهم وتنظيمهم وقيادتهم مرتبطة بالطريقة البكتاشية¹⁶. كما يوجد دافع آخر أكثر مباشرة لانتشار البكتاشية، وهو الفرمان الذي أصدره السلطان محمود الثاني سنة 1826 والقاضي بحل الجيش الإنكشاري ومنع الطريقة البكتاشية في كامل أرجاء الإمبراطورية العثمانية؛ نظراً إلى الترابط الشديد بينهما¹⁷.

في ذاك الزمن، اعتبرت الهرطقة وراء منع السلطان للطريقة البكتاشية، لكن الحقيقة أن ذلك القرار كان ذا طابع سياسي؛ لأنّ الإنكشارية والبكتاشيين كانوا محافظين، وكانوا يعارضون برامج السلطان الإصلاحية. وعلى الرغم من تعرض كثير من التكايا البكتاشية في ألبانيا إلى الهدم تطبيقاً للفرمان، فقد وجد عديد من الآباء في البلقان ملجأً عند المتعاطفين معهم في الجزء الجنوبي من ألبانيا¹⁸. لقد كانت تلك الفترة إحدى أشدّ فترتين قاسيتين على البكتاشية، أمّا الفترة الثانية فكانت في زمن فرض الدولة التركية بزعامة كمال أتاتورك قيوداً شديدة على البكتاشية، وهي الفترة التي شهدت انتقال المركز البكتاشي من بييري (Piri) إلى ألبانيا.

في كتابها «البكتاشية في ألبانيا» (Le bektachisme en Albanie)، تقول ناتالي كلاير (Nathalie Clayer) حول ترسيخ الطريقة البكتاشية في ألبانيا: «بهذه الطريقة، أصبح البكتاشيون الألبان في أعقاب انحلال الإمبراطورية العثمانية مجموعة كبيرة ذات تأثير في المجالات السياسية، نظراً لما كان لرجال دينهم من أثر بالغ على الناس». وبذلك تمّ، من ناحية أولى، إبعاد هذه المجموعة عن البكتاشية التركية، وعن المسلمين السنة، من ناحية ثانية، نتيجة التعارض بين موقفهم بشأن

(16) Olsi, Jazexhi, The Bektashi Tarikah of Dervishes, 2007: <http://www.reocities.com/djalosh/bektashi.pdf>.

(17) Huseyin Abiva, op. cit.

استقلال ألبانيا، وموقف تنظيم تركيا الفتاة (Jön Türkler). وكنيجة لذلك، أصبحت الجماعة البكتاشية، نظراً لإمكاناتها وهويتها، مستعدة للبروز كجماعة دينية مستقلة في ألبانيا الجديدة¹⁹.

نرى أنّ ما تزعمه كلاير صحيح، ففي تلك الفترة المحددة من القرن التاسع عشر، اتخذت الجماعة البكتاشية موقفاً مضاداً للأتراك، ومرتبطة بشدة بالقضية الوطنية، وأضحت التكايا مراكز لتعليم اللغة الألبانية التي كثيراً ما منعها الأتراك والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية المهيمنة في بعض المناطق الجنوبية من ألبانيا، وبذلك لعبت أماكن العبادة البكتاشية دوراً استثنائياً في نهضة الوطنية الألبانية (Rilindja).

ويمكننا ملاحظة الوطنية في الأعمال المكتوبة لنعيم فراشري (Naim Frasheri)، وهو شاعر وناشط بارز في الحركة الوطنية الألبانية في القرن التاسع عشر. فقد قام نعيم بتحرير صحيفة «البكتاشي» التي يمكن اعتبارها أول وثيقة رسمية للجماعة البكتاشية الألبانية، كما كتب قصيدة معروفة حول البكتاشية بعنوان «كربلاء»، نشرت أول مرة سنة 1898، وهي عبارة عن سرد لواقعة كربلاء التي قتل فيها الإمام الحسين، نجل الإمام عليّ وحفيد النبي. ولعلّه يجب قراءة هذه القصيدة من منظورين: أولاً: بوصفها قصيدة تصف حدثاً مأسوياً للغاية يجب أن تبقى ذكراه حية، وهي مسألة شديدة الأهمية للجماعة البكتاشية، وثانياً: بوصفها أمثلة سياسية. لقد حاول نعيم فراشري، في مسار تقليد أدبي وفلسفي شرقي ممتد، أن يظهر رؤاه الإنسانية، بحيث تعتبر قصيدة كربلاء أكثر من مجرد إعادة سرد لأحداث تاريخية: إنها قصيدة أخلاقية وفكرية، وهي بوح بمبادئ أخلاقية وإنسانية، نداء للطهارة والكمال. وبهذه الطريقة، يمكن للبشر الاستمتاع بالحياة على الأرض واجتراح القوة لتجاوز أسوأ الأحداث²⁰.

(19) Nathalie, Clayer, Le bektachisme en Albanie / Bektashizmi në Shqipëri, Tirana, albPaper, 2004, p. 296.

(20) Albert Doja, op. cit., p. 65.

ولعلّ الأغرودة الأخيرة من هذه القصيدة جديرة بالاهتمام، إذ يتحدّث فيها الشاعر حصراً عن المشاكل التي تواجه ألبانيا في تلك الفترة، مثل التعليم واللغة والحاجة إلى الوحدة الوطنيّة والأخوة بين الألبان، وهو ما يمكن من القول: إنّ الأغرودات الأربع والعشرين لقصيدة كربلاء الملحميّة مكتوبة لتقود إلى هذه الأغرودة الأخيرة حول المسائل الألبانيّة والألبان²¹، وهذا الأسلوب الشعريّ مشابه لقصيدة بطوليّة أخرى للشاعر نفسه بعنوان «تاريخ سكاندريبيج»، وهذا التضافر بين الوطنيّة والدين في شعر نعيم، هو ما أكسبه أهميّة في تلك الفترة. لقد كان نعيم بكتاشياً، لكنه كان في المقام الأوّل منادياً من أجل مصلحة البلاد في زمن المعاناة، وكان شعاره: «لا توجد أمة من دون دين».

حاول نعيم تعبئة التوجّه الشيعي البكتاشي لإعلان معارضته للنظام العثماني وتفصيل هويّة دينيّة مخصوصة للألبان. وأعتقد أن البكتاشيين هراطقة وتوفيقيّون، وهم بذلك قادرون على تجاوز الانقسامات الدينيّة في ألبانيا وتجسير الهوة بين الإسلام والمسيحيّة²². علاوة على ذلك، وبناء على التعريف الذي تعرّف به - غالباً - البكتاشيّة كعقيدة حلوليّة، كتب في كتابه «ورود الصيف» (Lulet e Veres) إنّّه لا يجب على المؤمن الحقّ البحث عن الله في الجنّة أو في الأرض، بل في مكان آخر: «أبحث عن الله في كلّ مكان، الواحد الحقّ والعظيم. إنه بقربي. إنه في!».

وعلى غرار غيرها من الأديان، مرّت البكتاشيّة في ألبانيا بسلسلة من الاضطهادات قبل الاستقلال وبعده إلى حدود سنة 1990 تاريخ ديمقراطية ألبانيا.

البكتاشيّة من الاستقلال إلى النظام الشيوعي

لم يثمر إعلان استقلال ألبانيا في 28 نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1912 استقراراً سياسياً، لكنّه جلب للبكتاشيّة شيئاً مهمّاً. فقد أعطي الزعماء البكتاشيون منصباً شرفياً في المجلس الوطني الذي أنشئ سنة 1914، وكان لهم ممثّل معترف

(21) المرجع السابق، ص 66.

(22) Fatos Lubonja, «Feja dhe Shqiptarët», Shekulli, n° 291, 21st October 2001, pp. 14-15.

به رسمياً في المجلس الأعلى للدولة²³. وبهذا، شمل مجلس الوصاية في دولة ألبانيا المستقلة حديثاً أربعة أعضاء ممثلين للأديان الأربعة الرسمية: المسلمون السنة، المسيحيون الأرثوذكس، الكاثوليك، والبكتاشيون. لكن هذا العهد الجديد للبكتاشية في ألبانيا، شهد -أيضاً- مؤامرة كانت تحاك ضدهم في تركيا.

فخلال فترة تأسيس الجمهورية التركية على يد كمال أتاتورك، شهد تاريخ البكتاشية منعطفاً عظيماً ثانياً. فعلى إثر منع جميع الطرق الصوفية سنة 1925، أُجبر البكتاشيون على ترك مقرّ وليهم (Pir-Evi) في حاج بكتاش (بين مدينتي قيصريه Kayseri وكيرشهر Kirsheir) والهجرة إلى ألبانيا²⁴. وفي تلك الفترة، بدأ البكتاشيون الألبان في بذل الجهود من أجل تأسيس المركز البكتاشي العالمي في تيرانا عاصمة ألبانيا. وبمبادرة من الجد الأكبر للطريقة، صالح نيازي دده (Sali Niazi Dede)، وهو ألباني، تمّ خلال سنة 1931 نقل المقرّ الرئيس للطريقة البكتاشية من التكية المركزية في حاج بكتاش في الأناضول، إلى تيرانا.

وخلال المؤتمر البكتاشي الثاني في 8 يوليو (تموز) 1924 المقام في تكية غيبروكاسترا (Gjirokastra)، دعمت ألبانيا المبادرة المذكورة آنفاً. لكن قبل ذلك، في 17 يناير (كانون الثاني) 1921، عقد المؤتمر البكتاشي الأول في تكية برشتا (Prishta) بمشاركة عديد المؤمنين من المتديّنين ومن العلمانيين. وفي هذا المؤتمر، تمّ إقرار القانون الأساسي البكتاشي، الذي يتكوّن من (28) فصلاً. وقد عرّف القانون الأساسي الأخوة البكتاشية طبقاً للتراتبية البكتاشية²⁵. أما القانون الأساسي الآخر المكوّن من (63) فصلاً، فقد تمّت المصادقة عليه في المؤتمر الثالث، في 26 سبتمبر (أيلول) 1929، وهو المؤتمر الذي تمّ فيه إعلان الجماعة البكتاشية جماعة مستقلة²⁶.

(23) Albert Doja, op. cit., p. 86.

(24) Olsi Jazexhi, op. cit.

(25) Sokrat Ahmataj, op. cit.

(26) المرجع السابق.

وبهذا تكون البكتاشية قد دخلت في ثلاثينيات القرن العشرين عصرها الذهبي، حيث أنشئت تكايا جديدة وبُنيت مراكز أصغر «درويشان» (dervishânes) أغلبها في الأراضي الواقعة جنوب نهر «شكومبيني» (Shkumbini). كما تم إنشاء معهد ديني في تيرانا لتدريب وتعليم الدراويش والآباء المرشحين بطريقة منهجية. وقد امتلكت عديد التكايا أوقافاً كبيرة وفرت عائدات كان يتم توظيفها في أنشطة الطريقة²⁷. كما عُرف البكتاشيون في الثلاثينيات بوصفهم أنصاراً للملك أحمد زوغو وللقضية الوطنية، وكانوا خلال الحرب العالمية الثانية ممثلين بمجموعة صغيرة من الآباء (baballare) مثل بابا فاجا مارتانيشي (Baba Faja Martaneshi)، الذين ساعدوا وحاربوا ضد الفاشية والنازية لتحرير ألبانيا. أما بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد صعود النظام الشيوعي في ألبانيا، فقد أُضحى يُنظر للبكتاشيين كتهديد محتمل للأيديولوجيا، وهو ما أدى إلى منع أنشطتهم بالكامل سنة 1947، لتصبح ألبانيا تحت الحكم الشيوعي الطويل الدولة الموحدة الوحيدة في العالم. لقد تم إعدام عدد من المؤمنين البكتاشيين إلى جانب الرافضين للانصياع للوصاية الشيوعية، أو أرسلوا إلى معسكرات الأشغال الشاقة، وقد نحا النظام المنحى نفسه مع المتدينين من الأديان الأخرى.

وفي تلك الفترة، أُغلقت جميع أماكن العبادة، وتم منع نشاطها. ولم تكن التكايا البكتاشية استثناء من ذلك، حيث تعرضت إما للهدم أو تم استخدامها لأغراض أخرى. وعلى سبيل المثال، فقد تم تحويل مقام الدده بابا (dedebaba) في تيرانا إلى مركز للفنون الشعبية القديمة، فيما حُولت التكايا الباقية، المبنية - غالباً - على قمم الجبال والتلال، إلى ثكنات للجيش أو إلى مصانع²⁸.

إلا أن الحظر المفروض على الدين من قبل الدولة، لم يمنع الألبان من المحافظة على شعائرهم الدينية سرّاً. وقد أسهم الألبان المغتربون خلال تلك الفترة بشكل واسع في المحافظة على البكتاشية، فقد اجتمعت الجالية الألبانية في الشتات في تكية

(27) Huseyin Abiva, op. cit.

(28) المرجع السابق.

قايقوسز (أو عبد الله المغاوري) في القاهرة واختاروا البابا الخاص بها، المبجل أحمد سرّي دده (Ahmed Sirri Dede) وهو من جنوب ألبانيا ليكون دده بابا (الجد الأكبر) في خطوة تهدف لمضادة الدده بابا المبارك من قبل النظام الشيوعي، أحمد مايفتار دده (Ahmet Myftar Dede). لكن الثورة المصرية الحليفة للسوفيت سنة 1952، أغلقت تكيّة قايقوسز، مما أنهى كلّ معارضة فعّالة لكسر قبضة أنور خوجه الخانقة حول البكتاشية.

وبعد مضيّ سنتين، أنشأ بابا رجب أوّل تكيّة ألبانية-أمريكية في تايلور، في ولاية ميتشيغن، وهي ضاحية في مدينة ديترويت. وقد مثلت إلى جانب تكيّة كوسوفو التي كانت تحت إدارة بابا كاظم بقالي (توفي سنة 1983) وجماعتها من المؤمنين المتحمّسين، أحد المراكز القليلة المتبقية في العالم للطريقة البكتاشية²⁹.

الدين في ألبانيا بعد 1990

بعد عقد التسعينيات، مرّ بتغيّرات لمست -أيضاً- الحياة الدينيّة. فقد استعاد الناس خطوة بخطوة معتقداتهم وشعائرهم التي بقيت سرّية لمدة طويلة، واكتسبت البكتاشية مكانتها في المجتمع البكتاشي، وذكّرت المؤمنين بقيم الحبّ والتسامح. وقد كانت مجلّة الحكمة (Urtësia) إحدى المجلّات الصادرة في تلك الفترة عن الجماعة البكتاشية إلى جانب إصدارات أخرى لباقي الجماعات الدينيّة، هي من ذكّر الناس بحريّة المعتقد وحملت لهم السلام الروحي. واليوم، أصبحت حريّة التدين مضمونة بحكم الدستور الألباني المصادق عليه 1998، ويضمن فصله العاشر الآتي:

1. لا يوجد دين رسمي في جمهورية ألبانيا.
2. الدولة حياديّة في مسائل الاعتقاد والضمير، وتضمن -أيضاً- حريّة التعبير في الحياة العامّة.

(29) نفسه.

3. تعترف الدولة بتساوي الجماعات الدينية.
4. تحترم الدولة والجماعات الدينية بصفة متبادلة استقلالية بعضهما، ويعملان سوياً من أجل خير كل منهما وخير جميعها.
5. تنظّم العلاقات بين الدولة والجماعات الدينية على أساس اتفاقات معقودة بين ممثليها ومجلس الوزراء. هذه الاتفاقات تتّح من طرف المجلس.
6. الجماعات الدينية هي ذوات معنوية. لها استقلالها الإداري في ما يخص ممتلكاتها طبقاً لمبادئها وقواعدها وشرائعها، ما لم تنتهك مصالح طرف ثالث³⁰.

وعلاوة على ذلك، أثمر استئناف الاحتفالات الدينية والأعياد في بلد النسور تناغماً بين الجماعات الدينية المختلفة، حيث يحتفل الألبان بجميع الاحتفالات الدينية معاً. إنهم يذهبون إلى حجّ كنيسة القديس ندوت (Shen Ndout) في مدينة لاش الألبانية للاحتفال بذكرى القديسين المسيحيين، أو يذهبون إلى بالنيا في مدينة المارتنيش (Ballenja of Martanesh) للاحتفال بالأولياء البكتاشيين. إنها مناطق مقدّسة متميّزة بمناظرها الطبيعية الجميلة والأخاذة، وفيها يشعر الناس بالتناغم في كلّ ما يحيط بهم.

وفي كلّ عام، يجتمع المؤمنون البكتاشيون والمسلمون السنّة والمسيحيون في جبل توموري (Tomorri) للاحتفال والصلاة من أجل الازدهار. إنّه الجبل المقدّس الذي كان يُطلق عليه في الأزمان السحيقة اسم «عرش الآلهة»، وكان الكتاب الألبان والأجانب يعتبرونه أوليمبوس ألبانيا أو دودونا (Dodona) أي حرم الآلهة.

وبالعودة إلى التراث، نجد أنّ حاجي بكتاش نفسه كان مهتماً بجبل توموري، حين رأى الحجيج الذهابين من أجل الصلاة للإله الوثنيّ كلّ صيف، فقد أخذ حفنة

(30) الفصل العاشر من دستور جمهورية ألبانيا.

تراب من ضريح العباس بن عليّ في كربلاء ووضعها على الجبل. ومنذ ذاك الزمن - حسب الأدب الشعبي - اعتبر توموري الضريح الثاني للعباس بن عليّ، وهو وليّ من أولياء الطريقة البكتاشية. وقد عبّر نعيم فراشري عن هذا الرمز للإيمان البكتاشي في مقطع شعري بقوله : «ملك العباس بن عليّ جبل توموري، جاء بقربنا، لم تبق ألبانيا فقيرة، لقد أنعم الله علينا».